

الخلاصة العامة.

خلاصة عامة:

إن المسار المنهجي المتبع خلال هذه الدراسة والمسلسل على المدينة عموما ومدينة بسكرة خصوصا قد أثبت من خلال التطرق لمركباتها الفيزيائية حدوث العديد من التحولات ضمن أبعادها (الاجتماعية، الاقتصادية، الثقافية، ...) وهذا بالتوافق مع التطورات الحاصلة على مستواها.

وبغض النظر عن حقيقة التحولات التي مست الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والثقافية التي تلعب هي الأخرى بالأصل دور المسبب في حدوث هذه التحولات التي تمس الأنسجة العمرانية المكونة للمدينة.

ولقد بينا في دراستنا هذه تغير الصورة العمرانية لمدينة بسكرة منذ دخول المستعمر إليها ليفرض بعد ذلك خطة معمارية وعمرانية جديدة على هذا المجتمع، هذا الأخير وجد نفسه مضطرا للتعايش والتأقلم وقبول هذا الطراز العمراني الغريب عنه بسبب عديد العوامل التي تعرض لها إما أزمة السكن والانفجار السكاني أو المشاكل المادية وتبعاتها أو عوامل أخرى تجعله مضطرا لقبول هذا النمط الأوربي، خصوصا وأن هذا النمط أخذ في التطور والنماء حتى بعد الاستقلال وعلى حساب نمط محلي وتقليدي أصيل طالما ضمن عديد الميزات التي تخدم نواح عديدة من متطلبات الإنسان الاجتماعية والنفسية والمناخية والمادية، وكانت بحق ذلك المجال المنشود الذي حوى الإنسان بكل أبعاده ضمن بيئة أكثر ملائمة للظروف المناخية المحلية وأكثر صحية.

ولا شك أنه لا يستطيع أحد أن يلغي فترة زمنية أو حقبة تاريخية ما من سجل أي كان، فإن دورة نمو المجتمع الإنساني وما يصحبها من نتائج على البيئة التي تؤويه على مدار التاريخ يمكن اعتبارها تراكمية بفعل التجربة الإنسانية في صورها الجماعية المنظمة التي تجعل الإنسان في إطاره الذي وجد من أجله وهو اجتماعيته حسب ما قاله << بن خلدون >>، إلا أننا نجد وفي مدينة بسكرة عزوفا عن تتبع آثار الأجداد في مجالي البناء والتخطيط واقتفاء لآثار المستعمر في تشييد العمائر والمرافق، بل ونقل بلا وعي لما يتم تشييده في مدن الشمال حتى أصبح الناتج قلبا معماريا أجوفا بلا روح، هذا كله مرده إلى الشرخ الهائل بين الخطة الحضرية وميدان تطبيقها لعدم إحاطتها الكامل بمعطيات مجتمع المدينة وعدم أخذ نواتها الأولى كأساس للتخطيط والتوسعات المستقبلية لما تتوفر عليه من مزايا بيئية محلية واجتماعية ومناخية لامتناس الفوارق المتوقعة بين الصور العمرانية المرتقبة، والوصول لتحقيق مجال عمراني ومعماري يحفظ طابع المدينة الواحاتي ويضمن الاستقرار المريح للمستعمل.

وتهدف هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على هذا كله في خطوة للفت الانتباه إلى خطورة هذا الوضع الراهن لعله يتفطن لذلك ليتم تدارك الأزمة قبل استفحال خطرها وتأتي على البقية الباقية من التراث المحلي العتيق الذي تزخر به هذه المدينة، وقد قسمت هذه الدراسة إلى جزأين رئيسيين:

- أحدهما نظري: وفيه تم ضبط أهم المصطلحات والمفاهيم النظرية التي من شأنها خدمة

البحث وفقا لمسار تدرجي من المدينة وصولا إلى الشكل العمراني.

وقد خصص الفصل الأول منها للكلام عن المدينة عموما وسرد كل ما يتعلق بها من مفاهيم أساسية وفقا لمنظور أهم المقاربات الفكرية للوصول إلى فك التعقيد الذي يعترها انطلاقا من فهم مركباتها على اختلاف نماذج المدن وتنوع خصائصها ووظائفها.

وقد خلصنا إلى أن المدينة تعد كيانا جد معقد وذلك بالنظر إلى خصائصها المختلفة من مدينة لأخرى كالموقع الجغرافي والوظيفة وعوامل النشأة ونمط التعمير وغيرها.

وعلى اعتبار أن المدينة كيان فيزيائي فإنه يؤثر ويتأثر بما حوله بما حوله من ثقافات السكان وظروف عيشهم الاجتماعية والاقتصادية مما يجعل المدينة في حالة من الحراك المستمر والتطور الذي يمس مظهرها الفيزيائي العام.

وفي الفصل الموالي تطرقنا إلى المدينة الأم المشكلة للبيئة العتيقة في المجتمع البسكري بكل ما تحمله من مفاهيم ومكونات، حيث تم التطرق إلى عوامل وظروف نشأتها وتأسيسها وخصائصها وأسس تنظيمها وتخطيطها والمراحل التي مرت بها والحقب التي توالى عليها لمعرفة منحنى تطور مثل هذا النوع من العمران العتيق، هذا العمران الذي شكل رغم بساطته المثال الأروع الذي حقق الطابع الإنساني بكل مقوماته من خلال نسيج عمراني متعاطف بدرجة وثيقة مع متطلبات الإنسان ومتماش مع قدراته المادية ومستجيب لمبادئ دينه وعاداته وأعرافه حيث يمكن القول بأن العمران العتيق حقق للسكان وقتئذ كل ما كانوا يصبون إليه.

وأما الفصل الثالث فقد خصص للكلام عن العمارة والعمران الاستعماري الذي يعد أول بذرة غرست لتحول العمران العتيق وأول مسمار دق في نعش العمارة المحلية، حيث تم الكلام عن نشأته وتوسعه وأهم الطرز المكونة له وكذا أهم المرافق المشيدة ضمنه، هذا العمران الذي يعد امتدادا للعمران اليوناني والروماني القائمين على البعدين الديني والعسكري والذي وصل إلى مدن العالم الإسلامي بواسطة الاستعمار حيث أصبح هذا العمران مفروضا على المدن المستعمرة وزادت مشاكله وتفاقت بعد انطلاق الثورة الصناعية في القرن الثامن عشر وما تمخض عنها من نتائج على الأصعدة الثقافية والاجتماعية والاقتصادية وتم إبعاد الإنسان عن إبداعاته الثقافية وعلاقاته الاجتماعية كون هدف هذه الثورة هو السيطرة على الإنسان وجعله مستهلكا فقط لمنتوج الحضارة الأوروبية.

وذيل هذا الفصل بكلام حول أهم المقاربات الفكرية المساهمة في الكشف عن الأهداف المبحوث عنها لنقوم بعدها بتبني المقاربة **المورفونمطية** كمقاربة يمكنها الكشف عن خصائص الأنسجة العمرانية بغرض الوصول إلى الفهم الحقيقي لماهية الشكل العمراني.

ولدراسة البنية التحتية للشكل العمراني تم اعتماد الشبكة التحليلية لـ Albert Lévy لمعرفة طبيعة العناصر والعلاقات بين عناصر الشكل العمراني وكذا تسهيل عملية القراءة وتحليل المؤشرات المدروسة ضمن هذه البنية.

أما البنية الفوقية فقد اعتمد على الملاحظة وكذا إجراء الاستبيان كوسيلة لجمع البيانات ثم معالجة المعطيات المتحصل عليها بواسطة بيئة برمجية مناسبة.

- والثاني تحليلى: أين تم تطبيق المنهجية والمقاربة المتبعة على حالة الدراسة، حيث استهل هذا الجزء بفصل يحوي في طياته تعريفا بحالة الدراسة ومميزاتها وخصوصيتها مما ساعد في سيرورة عملية البناء والتحليل، هذه المدينة التي شهدت قفزة نوعية وكمية معتبرة ومقلقة في ظل التنمية الشاملة على الصعيدين الصناعي والخدماتي ما انجر عنه إحداث نوع من الجذب أدى إلى تحفيز أفواج النازحين من الضواحي إلى مركز المدينة مما أخل بنموها وأدى إلى زيادة عدد سكانها قياسا بهياكلها العمرانية المتواجدة.

هذه الزيادة السكانية أدت إلى ظهور نوع من العمران العشوائي الذي أنتج بالمدينة مجموعة من الأشكال العمرانية المتضاربة سواء على المستوى المعماري بوجود أشكال غير متماشية مع معطيات المدينة المناخية أو الاجتماعية بل ومناقضة لطابع المدينة الواحائي الغني بالعناصر المعمارية النابعة من صميم هذا المجتمع، أو على المستوى العمراني من خلال ظهور أشكال عمرانية لا تخضع إلا للمعطيات التقنية كسهولة شق الشوارع وتوصيل مختلف الشبكات وتنظيم حركة المرور.

أما الفصل الثاني فكان أكثر تعمقا من سابقه حيث عني بحالة الدراسة بصفة مدققة متناولا عوامل النشأة والمميزات ومراحل النمو والتطور وكذا الحقب المتوالي على هذه المدينة والخبرات المتراكمة عن كل حقبة تاريخية حيث لوحظ ومنذ الاستقلال أن الإنتاج العمراني والمعماري بمدينة بسكرة أصبح لا يمثل سوى ثقافة المستعمر وعلى حساب السكان المحليين، حيث أصبح هذا العمران هو الخطة والمرجعية الأساسية التي تستند عليها عمليات التوسع المستقبلية للمدينة متجاهلة بذلك الأنوية العتيقة للمدينة التي كان من الواجب جعلها منطلق التوسعات العمرانية مما أدى إلى تقادم الهوة واتساعها بين العمرانيين المحلي والحديث أدى إلى بروز مجموعة من الأشكال العمرانية متجلية في مجموعة من التجزئات والأحياء الغير مراقبة والعشوائية حتى أصبح النسيج العمراني بالمدينة يشوبه الغموض والتمزق.

وفي الفصل الموالي تم تطبيق الدراسة التحليلية على الحي المدروس (الحي الاستعماري) بغية معرفة عناصر الشكل العمراني المكونة له وحقيقة العلاقات بين عناصر الشكل العمراني وهذا كله من أجل معرفة خصائص ومميزات الطراز المعماري والعمراني الاستعماري، هذا العمران الذي يخضع لنمط معين من التخطيط لا سيما على مستوى كل من الشبكات والتحصينات على حد سواء مما أفرز لنا نسيجا أشبه ما يكون بالوحدوي، هذا النسيج الذي يحقق مستوى معيناً من التنظيم على مستوى الفضاءات العمرانية والمرافق العامة مما خوله القيام بالمهام المنوطة به على جانب كبير من السهولة واليسر.

أما الفصل الأخير فقد تم من خلاله جس أحوال المستعملين للحي الاستعماري وكذا المختصين الميدانيين وأصحاب القرار من أجل فهم حقيقة انتشار مثل النوع من العمران.

وفي خاتمة هذه الدراسة فقد تبين لنا أن انتشار مثل هذا النوع من العمران كان في الحقيقة

نتاجا لالتقاء عدة عوامل فاعلة ساهمت إن لم نقل أنها تسببت في تفشيته من بداية الأمر:

- **أولها:** أن اختيار السكان للسكن ضمن هذا الحي كان أمرا حتميا عقب خروج المستعمر ونيل البلاد لاستقلالها كون هذه الأحياء كانت هي الأمثل للعيش نظرا لطبيعة الأشخاص الذين كانوا يقطنونها وتميزهم بظروف معيشية لائقة خلافا للأحياء العتيقة التي كانت تضم في جنباتها مجموعة الجزائريين البؤساء ومعاناتهم من الفقر والجوع والتهميش.
- **ثانيها:** الموقع الاستراتيجي لهذا الحي كونه يتوسط المدينة ككل فيصعب على السكان التخلي عنه لقربه من كافة المرافق الحياتية الضرورية للسكان حيث كانت هذه الأحياء عقب الاستعمار هي الأنوية الجديدة لعمليات التوسع، وكذلك للعلاقات الحميمة التي نشأت بين الجيران ضمن هذا الحي.

- **ثالثها:** اندثار القصور العتيقة التي تشكل أبرز معالم التراث والعمران المحلي العتيق، وبالتالي فقدان مراجع تصميمية ملموسة، بالإضافة إلى تأثر أغلب المصممين الجدد والمعماريين بمنتوج الحضارة الغربية واتخاذها كمرجع تصميمي لعمليات البناء والتصميم مما أفضى إلى تأزم الوضع العمراني لمدننا اليوم.

- **رابعها:** حدوث مجموعة من الأزمات أبرزها أزمة النمو والانفجار السكاني وما انجر عنها من أزمات للسكن، وبالتالي أصبح الاهتمام منصبا على عمليات الإسكان فقط لامتناس المشكل بغض النظر عن طبيعة المساكن أي أن الاهتمام أصبح بالكم دون النوع، بالإضافة إلى مجموعة عوامل أخرى لعلها أن تكون مواضيع بحث مستقبلية.
- وعليه نصل إلى أن مجموعة الفرضيات المقدمة كإجابات حول إشكال البحث تم إثبات صحتها من خلال تتبع أحوال النسيج العمراني وبالنظر إلى التعامل المتبادل بين المستعملين وأحيائهم السكنية.

- حدود الدراسة والمحاور المستقبلية للبحث:

إن هذه الدراسة تضم إحاطة بمدينة بسكرة منذ نشأتها إلى يومنا هذا مرورا بالحقب الزمنية المتوالية التي مرت على هذه المدينة من خلال تحليل مركبات أنسجتها العمرانية وفقا للمقاربة المورفونمطية، وقد اقتصرنا في هذه الدراسة على تحليل الإطار الفيزيائي الخارجي للنسيج العمراني الاستعماري بالمدينة وتعرضنا لبعض العوامل التي ارتأينا أن لها السبب وراء تأقلم الأسرة الجزائرية مع هذا الإرث الأجنبي.

ومنه فإن هذا الموضوع قابل للتعلم فيه أكثر سعيا للخلوص بأكثر العوامل الدافعة إلى انتشار مثل هذا النوع من العمران في مجتمعاتنا، وعليه فإن توجيه البحث يكون كالآتي:

- المستوى الأول:

اتخاذ هذه الدراسة كمرجع أو منطلق للتعلم أكثر في دراسة أنسجة مدينة بسكرة، أو تطبيق نفس المنهجية المتبعة على مدن أخرى تابعة لإقليم الزيبان للخلوص بالمنطق العام الذي يتحكم في نمو وتطور مدن هذا الإقليم لمعرفة علاقة المدينة بالإقليم ككل.

- المستوى الثاني:

- البحث عن عوامل أخرى ساهمت في انتشار العمران الاستعماري بالمدينة أو الإقليم ككل وأدت إلى تأقلم الأسرة الجزائرية معه.
- دراسة النسق المبني (ما بداخل المبنى) إضافة لباقي النسق الأخرى للكشف عن التغيرات الحاصلة على مستوى الشكل العمراني من الداخل والخارج.
- تحديد التأثيرات المباشرة وغير مباشرة للعوامل (الاجتماعية، الاقتصادية، الثقافية) على تحول الأنسجة العمرانية.